د. رحيم حسين
أستاذ باحث في العلوم الاقتصادية
مدير مخبر الدراسات والبحوث
في التنمية الريفية" بجامعة برج بوعريريج

أخلقة الأنشطة السياحة:
معالم أساسية لمدونة إسلامية لأخلاقيات السياحة

الحلقة (١)

ملخص: لا يمكن لمجال السياحة أن يكون ميداناً اقتصاديّا مستقلا عن البعد الاجتماعي-الثقافي في بلد ما، و لا يمكن نكران هيمنة الطابع العلاقاتي فيها (علاقات ما بين البشر، علاقات مع الموارد السياحية وعلاقات مع الطبيعة)، وبالنظر إلى التطور الملفت للممارسات السياحية غير المسؤولة على المستوى العالمي، المغذّى "بمتطلبات العولمة" عرف البحث في مجال أخلقة الأنشطة السياحية خلال العقود الثلاثة الأخيرة تطورا ملفتا. وفي هذا الإطار من التفكير حول "سياحة مسؤولة" ظهرت عدة مدونات لأخلاقيات السياحة، أبرزها المدونة العامة لأخلاقيات السياحة (WTO). غير أن هذه الأخيرة وعلى أهميتها التوجيهية جاءت في صياغات "عامة" وعلى شكل توصيات، موجهة لكل الشعوب والثقافات، ولذلك لابد من التفكير في مدونة خاصة بأخلاقيات السياحة في المجتمعات الإسلامية. وهذا البحث هو محاولة في هذا الاتجاه.

كلمات أساسية: سياحة، سياحة بديلة، سياحة مسؤولة، أخلقة السياحة، مدونة أخلاقيات الساحة.

Abstract:
Being given the importance of the socio-cultural dimension in tourism, and its prevalent relational character (relations between groups and individuals, relationships with the tourist resources and the nature) on the one hand, and considering the evolution of the irresponsible tourist practices on a world level, supplied by the "implications of the globalization", on the other hand, the tourism ethics research has remarkably developed during the past three decades. Within this framework of reflection on " responsible tourism ", several charters were appeared, most notable of which was the global code of ethics for tourism (WTO). However, this world code, in spite of its directing importance, it is only catalog of general guidance, intended for all peoples and all cultures, which necessitates serious thinking about a specific code for the Moslim societies. This work is an attempt in this direction.

Keyboards: tourism, alternative tourism, responsible tourism, tourism ethics, ethics charter for tourism.

مقدمة:

على الرغم مما شهدته الأنشطة السياحية من نمو مطّرد خلال العقود الثلاثة الماضية، مما أهلها لتشكل صناعة قائمة بذاتها، إلا أن إطار تطور هذه الأنشطة والممارسات المرتبطة به ما يزال بحاجة ملحة إلى تهذيب، لاسيما في ظل عولمة سياحية مجردة من الأخلاق يهيمن عليها سلطان رأس المال من ناحية، وسلطان الهوى من ناحية ثانية، ذلك أن "الخطر الأخلاقي" الذي يلف هذه الصناعة إنما يهدد في الحقيقة علاقات التعارف ما بين الشعوب، والتي يفترض أن تقوم على أساس الاحترام المتبادل، فضلا عن كونه يمثل تهديدا لتطور السياحة العالمية.

إن اعتبار البعد الأخلاقي في السياحة ليس مجرد مقصد تحسيني، بل هو ضرورة يقتضيها منطق الفطرة في العلاقات البشرية الذي يقوم على أساس احترام ثقافة الآخر. ولذلك فإنه من الأهمية بمكان أن يجد النقاش حول أدبيات السياحة مساره إلى التطبيق، ولعل أول المعنيين بهذه المسؤولية السلطات التشريعية والتنفيذية في البلدان الإسلامية.

وفي الحقيقة كثيرا ما تُربط مسألة أخلاقيات السياحة بممارسات السياح الوافدين من بلدان الشمال إلى بلدان الجنوب، ولاسيما إلى البلدان الإسلامية، وذلك بسبب تباين القيم الاجتماعية والثقافية، وهو ما ظل يطرح إشكالات عميقة تمس بجوهر السياحة وغاياتها فضلا عن مسألة تنظيم الأنشطة السياحية في البلدان المضيفة، مما أثار همة العديد من الباحثين لطرح أسس "سياحة بديلة"، وانبثقت عن تلك الجهود اصطلاحات جديدة: "سياحة مسؤولة"، "سياحة عادلة" و"سياحة تضامنية"، وهو ما توج بإصدار المدونة العامة لأخلاقيات السياحة من طرف المنظمة العالمية للسياحة في ديسمبر ٢٠٠١، إضافة إلى العديد من المدونات القطرية.

غير أن تلك النداءات والمدونات على نبل محتواها، لم تكن لتغير الواقع بل وإن بعض الممارسات السياحية أضحت مدمرة للثقافات المحلية والأسوأ أنّ بعضها الآخر أخذ أبعادا منحرفة مما ولّد نظرة سلبية تجاه السياحة عموما في المجتمعات المضيفة. وبناءً عليه كان لابد من البحث

عن آليات وتدابير تشريعية وتنظيمية تمكّن من ضبط الأنشطة السياحية وتسمح بتحقق التوازن بين البعد الاقتصادي للسياحة من ناحية، وبعدها الاجتماعي-الثقافي من ناحية ثانية.

ولئن كان من الصعب في الوقت الحالي- بل من المستحيل- تقييم تطبيق تلك المبادئ المتضمنة في تلك الوثائق إلا أنه لا مانع من استخدام "السياحة التضامنية" كأداة تسويقية لجذب "السياح المستبينين" (touristes éclairés) ولو في غياب مسار حقيقي في هذا الاتجاه . ومن الطبيعي أن المناخ القيمي العام في البلدان الإسلامية سيجعل من تطبيقية مبادئ مدونات أخلاقيات السياحة سهلة المنال نسبيا بالمقارنة مع البلدان الغربية، غير أن المشكلة الحقيقية تكمن في كيفية تعميم التطبيق على كل السياح الوافدين سواء أكانوا من المسلمين أم من غير المسلمين.

وبالنظر إلى الأهمية السياحية للعالم الإسلامي الممتد عبر ثلاث قارات، بما ينطوي عليه من موارد سياحية متنوعة، والذي أضحى أكثر فأكثر استقطابا للسياح الأجانب فضلا عن السياحة البيئية والتي ينبغي دعمها والتعويل عليها، فإن التفكير في صياغة مدونة إسلامية لأخلاقيات السياحة بات ضرورة شرعية والتي من شأنها أن تشكل أرضية استلهام لمدونات محلية خاصة، وخلفية يمكن الاستفادة منها في تصميم السياسات السياحية في دول العالم الإسلامي بوجه عام، وهذا يجرنا أيضا إلى الحديث عن منظمة إسلامية للسياحة في إطار منظمة التعاون الإسلامي.

يهدف هذا البحث إلى إبراز القيم الإسلامية المرتبطة بالأنشطة السياحية واستجلاء أهميتها في إرساء إطار عام للسياحة بالبلدان الإسلامية، ومن ثم محاولة تقديم معالم أساسية لمدونة أخلاق إسلامية. وستتم معالجة هذا البحث من خلال المحاور التالية:

- السياحة والأنشطة السياحية في ظل عولمة الأسواق
- السياحة في المنظور الإسلامي: أسسها وضوابطها
- أخلقة الأنشطة السياحية ومدلولاتها: سياحة مسؤولة، سياحة مستدامة، مع مقاربة مقارنية بين المفهوم الغربي والمفهوم الإسلامي
- قراءة مقتضبة في المدونة العامة لأخلاقيات السياحة (م.ع. س)
- المعالم الأساسية للمدونة الإسلامية لأخلاقيات السياحة

السياحة والأنشطة السياحية في ظل عولمة الأسواق:

وفقا للمنظمة العالمية للسياحة يدل لفظ السياحة على "مجموعة الأنشطة التي يقوم بها الأفراد خلال سفرياتهم وتنقلاتهم في أماكن تقع خارج بيئتهم المعتادة، ولمدة مستمرة لا تتجاوز السنة، وذلك بغرض الاستجمام أو الأعمال أو لأسباب أخرى لا تتعلق بنشاط معوض عنه في المكان المزار" .

ولا يخفى أن الأنشطة السياحية أضحت من أهم المصادر التي يعول عليها العديد من الاقتصاديات في تنميتها، حتى إن بعض الاقتصاديات توصف بأنها اقتصاديات سياحة، وهو ما يعكسه تنامي مساهمة قطاع السياحة حيث ظل يحقق أعلى معدلات نمو خلال الثلاثين سنة الماضية، ويمثل دخله عشر الإنتاج الداخلي الخام العالمي .

وفي ذات السياق ووفقا لبيانات المنظمة العالمية للسياحة فقد بلغ عدد السياح ٩٨٢ مليون سائح في سنة ٢٠١١، بينما تجاوزت عائدات السياحة العالمية لذات السنة الألف مليار دولار أمريكي، مقابل ٩٢٨ مليار دولار في سنة ٢٠١٠، أي بزيادة قدرها ٣،٨٪، إثر زيادة في عدد السياح بنسبة ٤،٦٪، وبإضافة الـ ١٩٦ مليار دولار المتولدة عن النقل الدولي للمسافرين تصل عائدات السياحة العالمية إلى ١٢٠٠ مليار دولار. وبفضل هذا النمو المضطرد أصبحت السياحة العالمية (سفر ونقل المسافرين) تمثل ٣٠٪ من الصادرات العالمية للخدمات و٦٪ من إجمالي صادرات السلع والخدمات .

وعلى مستوى دول العالم الإسلامي، ومع إن الوجهات السياحية مركزة في الضفة الشمالية (أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية) لأسباب متعددة، إلا أن هناك استقطابا متناميا للسياح على مستوى عديد دول العالم الإسلامي، ونذكر هنا على سبيل المثال المغرب وتونس ومصر والأردن ولبنان وسوريا وتركيا وألبانيا وطاجكستان وإندونيسيا وماليزيا وبعض دول الخليج، وهو ما تدل عليه المؤشرات السياحية كالإيرادات، عدد السياح، عدد الفنادق والمركبات السياحية وغيرها.

وفي هذا الصدد تشير البيانات إلى أن الأنشطة السياحية الدولية في دول منظمة المؤتمر الإسلامي (٥٧ دولة) في نمو مطّرد، حيث بلغ عدد السياح الوافدين ١٢٩،٧ مليون في ٢٠٠٩، أي ١٤،٧٪ من إجمالي السياح الوافدين العالمي، وهو ما يمثل تزايدا بمعدل نمو سنوي متوسط ٤،٩٪ للفترة ٢٠٠٤-٢٠٠٩، في حين بلغت الإيرادات المتولدة عن هذه الأنشطة ١٠٩،٥ مليار دولار أمريكي، وتمثل ١٢،٩٪ من إجمالي الإيرادات السياحية العالمية، وارتفاعا بمعدل نمو سنوي متوسط ٨،٩٪ للفترة ٢٠٠٤-٢٠٠٩. غير أنه تجدر الإشارة هنا إلى أن الأنشطة السياحية ظلت مركزة في بعض دول المنظمة فقط. ففي سنة ٢٠٠٩ مثلا نجد أن ١٠ دول منها استحوذت على ٨٣،٦٪ من السياح الوافدين (١٠٨ مليون وافد)، وهو ما ينطبق أيضا على الواردات، حيث نجد أن ١٠ دول فقط تستحوذ على ٨٦،١٪ من إجمالي الإيرادات السياحية لدول المنظمة (٩٤،٣ مليار دولار) .

غير أنه وعلى أهمية مؤشري عدد السياح وإجمالي إيرادات الأنشطة السياحية في حساب نمو القطاع، إلا أنهما يظلان مؤشرين أصمّين، فهما لا يدلان على مختلف التأثيرات الإيجابية والسلبية للأنشطة السياحية، إن على الاقتصاد والمجتمع بوجه عام، أو على المناطق المستقبلة على وجه الخصوص، والتي من ضمنها: المساهمة في التشغيل، تحسين مستوى المعيشة ومكافحة الفقر، انتعاش الصناعات، مدى تغيير الأنماط الاستهلاكية والسلوكات الاجتماعية، التأثير على القيم والعادات المحلية وغيرها من التأثيرات.

لقد ساهمت عولمة الأسواق في انتعاش الأنشطة السياحية، ليس فحسب من خلال حركة اليد العاملة وسياحة الأعمال، ولكن أيضا من خلال تكثيف حركة السياحة المنظمة، بما فيها تلك التي وجهتها بلدان إسلامية. وهذه الحركية السياحية، مع ما تحمله من إيجابيات، تتضمن في طياتها تصديرا للثقافات عبر الحدود، وهو ما قد ينطوي على مخاطر بمنظور سكان المناطق المستقبلة. وفي هذا الصدد قسم (C. Gagnon & S. Gagnon) تأثيرات النشاط السياحي على المناطق المستقبلة ثلاثة جوانب أساسية: التنظيم الاجتماعي، الثقافة المحلية والحياة اليومية .

كثيرا ما تقارن آثار السياحة بآثار النار، فكما إنها تساعدك على طهي غذائك وتسخين بيتك، فهي أيضا يمكن تحرقهما . إنها كما يقول المثل الشائع (سلاح ذو حدين). فلئن كانت السياحة مولدة للنمو ولمناصب الشغل وداعمة للعلاقات الاجتماعية وغيرها من الآثار الإيجابية، فهي أيضا يمكن أن تشكل سببا في تدمير العديد من الثقافات والعادات المحلية، هذا إضافة إلى ما يمكن أن تلحقه من الضرر بالموارد الطبيعية والأنظمة البيئية.

بصفة عامة يمكن أن نذكر عدداً من التأثيرات الإيجابية والسلبية ذات البعد الاجتماعي والثقافي على المناطق المستقبلة الإيجابية:

- التأثير في العلاقات والأنماط والعادات السائدة: تغير أنماط الاستهلاك (أكل ولباس)، خروج المرأة إلى العمل (خاصة الفتيات)، انتشار ثقافة الاختلاط ما بين الرجال والنساء، استغلال الأطفال في العمل، طمس بعض العادات المحلية، الخ.
- تثمين وتعزيز التراث الثقافي المحلي (كالصناعات التقليدية والمعالم الأثرية) وخلق روح المسؤولية المشتركة في حماية وصيانة هذا التراث، وكذا تدعيم الانتماء لدى السكان المحليين وتقوية وازع تنمية مناطقهم.
- إمكانية انتشار بعض الآفات والممارسات الدخيلة (كالمشروبات الكحولية والمخدرات والعلاقات الجنسية غير المشروعة).
- الاطلاع على ثقافة الآخرين (الوافدين) والاستفادة من بعضها وتعلم لغات جديدة.

ولئن كان تأثير الأنشطة السياحية لا مناص منه، فإن القدرة على الاستفادة من إيجابياته وتدنية سلبياته يتوقف على مستوى متانة الأطر المنظمة لهذه الأنشطة، التشريعية منها والتنظيمية، وعلى مدى استعداد المجتمعات المحلية وقوة مقاومتها تجاه الممارسات السلبية. وعموما تتجاذب التأثيرات الأنشطة السياحية على المناطق المحلية قوتان: قوة التأثير التي تتعلق بجانب العرض، وقوة المقاومة التي تتعلق بجانب الطلب، وبالتالي فإن ما يحصل من تأثيرات خلال فترة ما هو محصلة تدافع هاتان القوتان، وهو ما يوضحه الشكل التالي:

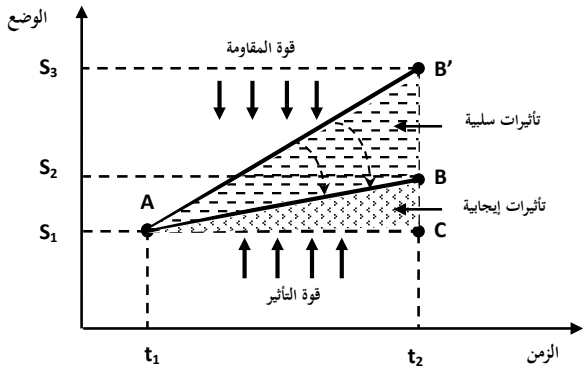

الرسم البياني رقم1: تأثير الأنشطة السياحية ومقاومة المجتمعات

يبين الشكل (١) أن الأنشطة السياحية من شأنها أن تؤثر على وضع المناطق المستقبلة فتنقلها خلال فترة (t1-t2)، من الوضع (S1) إلى الوضع (S3) الموافق للنقطة (B')، وهو وضع غير مرغوب غير أن مقاومة هذا التأثير تعمل على تفادي التأثيرات السلبية والاستفادة من التأثيرات الإيجابية المبرزة في المثلث (ABC) أي أنها تعمل على إيقاف التأثير عند الوضع (S2) الموافق للنقطة (B) وهو هدف أمثلي ليس سهل المنال.

وهكذا يتجلى أن المسألة تتعلق بتعظيم المنافع المتولدة عن الأنشطة السياحية من ناحية، وتدنية أضرارها من ناحية ثانية، أي أنها مرتبطة بمدخل المزايا-التكاليف. ومن الواضح أن النظر إلى كل من المزايا والتكاليف، أو المنافع والأضرار، ينبغي أن يتسم بالشمولية، أي أن يتضمن الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية والثقافية معا.

يسمح لنا تحليل الأنشطة السياحية على أساس مدخل المنافع والأضرار بترتيب الأنشطة حسب الأهمية وبإعداد الاستراتيجيات المناسبة، إما بالاستبعاد أو بالإصلاح أو بالدعم. فثمة أنشطة مرفقة بمضار كبيرة مع منافع ضعيفة، وهي غير قابلة للإصلاح يفضل استبعادها، بينما هناك أنشطة منافعها كبيرة أو متوسطة وأضرارها ضعيفة أو متوسطة، فيتعين العمل على إصلاحها قصد تغليب منافعها، في حين يجب أن تحظى أنشطة أخرى بالدعم والتطوير باعتبار قوة منافعها وضعف أضرارها. والمصفوفة التالية تعطي صورة عن ذلك:

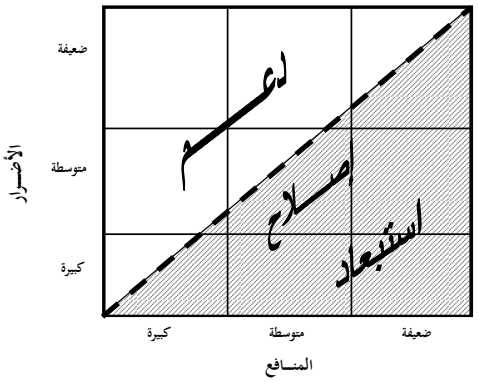

الرسم البياني رقم2: مصفوفة المنافع والأضرار السياحية والاستراتيجيات الموافقة

وإذا ما نظرنا إلى مسألة التأثير والتأثر من منظور جزئي، أي باعتبار الفرد السائح من ناحية ومن الوجهة الإسلامية من ناحية أخرى، يمكن أن نميز بين ثلاث حالات:

- سياحة المسلم في بلاد الإسلام: مع أنه يفترض أن تكون سياحة المسلم في بلاد الإسلام أكثر نفعا، وذلك بسبب وحدة الانتماء الديني والتجانس الثقافي، إلا أن التحولات الاجتماعية والثقافية التي شهدتها بلاد المسلمين في عمومها انطوت على كثير من الانحرافات والمفاسد، ومع ذلك يمكن التحكم فيها وإصلاح الوضع من خلال سياسة سياحية قويمة.
- سياحة المسلم في بلاد الكفر: يمكن لهذه السياحة أن تكون إيجابية فرديا واجتماعيا، ففضلا عن الاطلاع على الحضارات الأخرى وأسرارها، فإن المسلم مدعو لأن يبدي الأخلاق الإسلامية ويدعو إليها، وهنا نتحدث عن "السياحة الدعوية"، ولا يخفى في هذا الصدد أن انتشار الإسلام لم يكن كله بالفتوحات والغزو، بل تم على يد هؤلاء الدعاة والتجار الضاربون في أرض آسيا وإفريقيا، ولم يكونوا يحملون سوى القيم الإسلامية من خلق وصدق وحسن معاملة ووفاء بالعهود. وهنا نتحدث في الحقيقة عن "سياحة الأعمال"، ومع ذلك تبقى سياحة المسلم في بلاد الكفر محفوفة بالمخاطر، لاسيما في ظل ضعف الوازع الديني لدى العامة من الناس من جهة، والانحلال الأخلاقي في تلك المجتمعات من جهة ثانية، مما يجعل إمكانية التأثّر السلبي أقوى من التأثير الإيجابي. فالرذيلة تصطاد الفضيلة، أو كما يقال "الصفة الذميمة تصطاد الجيدة" ، أي أنّ انتشار الرذيلة واستباحتها قد تقضي على الفضيلة.

ولذلك فقد منع بعض العلماء المعاصرين السياحة إلى بلاد الكفر لمجرد النزهة والاستجمام من غير حاجة شرعيّة كالعلاج والتجارة والتعليم الضروري الذي لا يوجد في بلده، وفي ذلك يرى ابن عثيمين أن السفر للسياحة في بلاد الكفار ليس بحاجة، وقد اشترط في هذا السفر ثلاثة شروط لجواز هذه السياحة: الأول أن يكون عند الإنسان علم يدفع به الشبهات؛ الثاني أن يكون عنده دين يمنعه من الشهوات؛ والثالث أن يكون محتاجا إلى ذلك .

- سياحة الكافر في بلاد الإسلام: إن المطلوب هو جعل هذه السياحة وسيلة للدعوة ونشر القيم الإسلامية والتأثير بها في السائحين الوافدين، ومما صح عن السنة النبوية أحاديث في فضل الدعوة قوله صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه لما بعثه إلى خيبر "ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم" (متفق عليه من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه)، وحمر النعم هي أجود الإبل وأحسنها، غير أنه يمكن السائح الكافر أن يحدث تأثيرا سلبيا بسلوكياته إذا ما وجد أرضية مناسبة وقابلية لذلك في المجتمعات المستقبلة.

وهكذا ففي كل حالة من الحالات السابقة هناك إمكانية للتأثير والتأثر إيجابيا وسلبيا، وعلى السائح المسلم أن يرجح المنافع على المخاطر من تنقلاته السياحية، وأن يجعل شعاره الحديث النبوي الذي رواه الترمذي: "اتق الله حيث ما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن" (رواه الترمذي وقال حديث حسن).

المراجع:

1. في الواقع كثيرا ما يضفى البعد الاقتصادي على هذه المفاهيم. فالسياحة العادلة، والسياحة التضامنية (Tourisme solidaire)، وهما مفهومين متقاربين، سوى أن الثاني يعطي أهمية أكبر للعلاقة بين السائح والمستقبل، يركزان على استفادة المناطق المستضيفة في الجنوب الفقير من الموارد السياحية. أما السياحة المسؤولة فهي أكثر تركيزا على الجوانب البيئية، أي تحقيق سياحة مستدامة.
2. Chabloz Nadège . « Vers une éthique du tourisme ? » Les tensions à l'œuvre dans l'élaboration et l'appréhension des chartes de bonne conduite par les différents acteurs. Autrepart. 2006/4 n° 40. p46
3. Organisation Mondiale du Tourisme. Concepts, définitions et classification des statistiques. manuel technique n°1. Madrid. OMT. 1995. p126
4. Bates Samuel et al.. « Évaluation de l'avantage macroéconomique net du tourisme Analyse coûts-bénéfices des recettes touristiques internationales » .Revue d'Économie Régionale & Urbaine. 2007/1 mai. p80
5. D'après un communiqué de presse de l'OMT: "Les recettes du tourisme international dépassent les mille milliards de dollars en 2011". PR No.: PR 12027. Madrid. 07 May 2012
6. هذه الدول هي: تركيا، ماليزيا، مصر، السعودية، المغرب، تونس، إندونيسيا، سوريا، الكويت والأردن.
7. Rapport économique annuel dans les pays membres de l'OCI 2009. Centre de Recherches Statistiques, Economiques et Sociales et de Formation pour les Pays Islamiques (SESRIC). p11
8. Luce Proulx. "L'écotourisme: une activité d'épanouissement collectif et individuel ? Impacts sociaux et culturels du tourisme". chap.3 dans l'ouvrage collectif intitulé: L'écotourisme: entre l'arbre et l'écorce. S /D de Christiane Gagnon et Serge Gagnon. Presses de l'Université du Québec. Québec. 2006. pp79-80
9. In: CDB (Convention sur la diversité biologique). Un guide des bonnes pratiques: Le tourisme pour la nature & le développement. Montréal. 2010. p1 ; publié dans: www.cbd.int/.../cdb-guide-des-bonnes-practiques-tourisme-web-fr.pd... . consulté le 26/04/2011
10. Bertrand Lemennicier. La morale face à l'économie. Editions d'Organisation. Paris. 2006. p47
11. محمد بن صالح العثيمين، شرح الأصول الثلاثة، دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع، الاسكندرية، 2001، ص ص 131 ,132

د. رحيم حسين
أستاذ باحث في العلوم الاقتصادية
مدير مخبر الدراسات والبحوث في التنمية الريفية" بجامعة برج بوعريريج – الجزائر

أخلقة الأنشطة السياحية:
معالم أساسية لمدونة إسلامية لأخلاقيات السياحة

الحلقة (٢)

أخلقة الأنشطة السياحية ومدلولاتها: بين المفهوم الغربي والمفهوم الإسلامي

يقصد بالأخلاق مجموعة المبادئ والقيم التي تحكم السلوك البشري في كافة العلاقات والمعاملات. فالأخلاق كما يقول Schéou، هي بالضبط ما يميز الإنسان ويفرقه عن الحيوان . وفي المصطلح الغربي تستعمل كلمة Ethics أكثر من كلمة Moral، على الرغم من أن أصلهما واحد، وهو الكلمة الإغريقية Ethikos، وتعني الخُلُق، أو Ethos، وتعني الطبع ذلك أن هذا الأخير له نوع من الإيقاع الديني . ولقد بات إدراج البعد الأخلاقي في مجال العلوم والأعمال عموما يمثل انشغالا متناميا، إن على المستوى الفكري أو على مستوى السياسات، وفي هذا نتحدث عن أخلقة السياسة، أخلقة الاقتصاد، أخلقة الإعلام وأخلقة المعرفة بوجه عام.

و وفقا لذلك تدل أخلقة السياحة على إدخال الاعتبارات الأخلاقية في كافة الأنشطة السياحية، سواء ما مستوى الفرد (السائح) أو على مستوى المؤسسات السياحية. و لقد برز هذا الانشغال خصوصا بعد أن أخذت الأنشطة السياحية مناحي سلبية متنافية والأغراض المرجوة منها، تجلت في علاقات وممارسات مخلة بالفطرة السليمة في بعضها، ومضرة بالبيئة والموارد الطبيعية في بعضها الآخر.

وفي ظل هذا المسعى برزت مصطلحات جديدة نسبيا في الغرب بخصوص السياحة، ومن ضمنها: سياحة مسؤولة، سياحة مستدامة، سياحة تضامنية، سياحة عادلة وسياحة مدمجة أو متكاملة. وهذه المصطلحات تنبئ في الواقع عن توجه جديد نحو "سياحة بديلة" لا تكون فيها السياحة مجرد نشاط أو "صناعة" ربحية مجردة من الأخلاق والمسؤولية المجتمعية.

وفي الواقع تمثل "السياحة التضامنية" اشتقاقا مما يعرف بالاقتصاد التضامني والاجتماعي، الذي انتشر صيته واتسع نطاقه خلال السنوات الأخيرة، إذ لم يعد منحصرا في تلك الأنشطة ذات البعد الاجتماعي والثقافي والفني، بل امتد ليشمل مختلف الأنشطة. وفي الحقيقة كما يقول Gautier لا يمكن اختزال "الاقتصاد التضامني" في كونه مجرد فرع من فروع الاقتصاد: إنه مشروع مجتمع . وفي ذات السياق يمكن أن نعتبر "السياحة التضامنية" بمثابة مشروع عالمي تكون فيه السياحة أداة للتضامن ما بين الأفراد والشعوب.

يجسد التوجه نحو إرساء قواعد لسياحة بديلة نداء مسؤولا في سبيل مواجهة التشوهات التي علقت بعديد الأنشطة السياحية، والتي عمقت من نتوئها ظاهرة العولمة الاقتصادية والثقافية، حيث طغت على هذه الأنشطة الاعتبارات الاقتصادية على حساب الاعتبارات الاجتماعية والثقافية والأخلاقية، حتى إنه برزت أنماط غريبة من السياحة، كالسياحة الجنسية، وأضحى ما أصبح يعرف بالرباعية 4S (شمس، بحر، رمال وجنس) رمزا في التسويق السياحي، فسلخت السياحة من معانيها وروحها، وجعلت من السائح مجرد عميل، ومن الوجهة السياحية مجرد سوق. ولعل من أسوء آثار هذا التحول تهديم الثقافات وطمس القيم.

لقد ظل تحليل الأنشطة السياحية وفق مدخل المنافع – التكاليف مستنكفا عن الجوانب الثقافية والقيمية، كما ظلت دراسات الجدوى المرتبطة بالمشاريع السياحية مركزة على تحليل العائد والمخاطر بمعناهما المادي، مع ما تنطوي عليه من خطر أخلاقي، ولعل التطور البارز في هذا المجال ينحصر في إدراج التأثيرات البيئية في التحليل، وليس ذلك سوى استجابة للمقتضيات الشكلية والقانونية المتعلقة بالتنمية المستدامة.

ولئن ظل الخطر الأخلاقي مرتبطا بكافة الأنشطة البشرية، إلا أن الأنشطة السياحية تبقى أكثر من غيرها عرضة لهذا الخطر، ذلك أن موضوعها هو العلاقات ما بين البشر، وآلتها هي السلوك البشري. ويكمن الخطر الأخلاقي في مجال الأنشطة السياحية في ممارسات مختلف الأعوان السياحيين (سياح ومؤسسات سياحية وهيئات ومرشدين) التي تستهدف تعظيم المنافع الخاصة ولو على حساب الآخرين أو على حساب البيئة.

إن التجاذب إن لم نقل الصراع ما بين تيار جارف يعتقد أن السياحة هي نشاط اقتصادي بحت، وبالتالي لابد من التجرد من الأخلاق عند تناولها، وتيار يرى في السياحة ظاهرة اجتماعية وثقافية بالأساس، ينم في الحقيقة عن اختلافات في رؤية الظاهرة السياحية ولا تجانس في إدراك المفهوم، وهو ما أدى إلى تضارب في تعريف السياحة. ولعل المشكل في تعريف السياحة ينبع أساسا من كونها متعددة الأبعاد والمجالات . ونتيجة لصعوبة التوافق على تعريف موحد للسياحة أضحى تعريف المنظمة العالمية للسياحة المذكور في بداية هذا البحث بمثابة الملجأ والمرجع في جل الأبحاث المرتبطة بالسياحة، على الرغم من أن هذا التعريف يحصر السياحة في البعد الاقتصادي والمكاني، أي "التنقل في المكان خارج البيئة المعتادة" ولأسباب لا تتعلق "بأنشطة معوض عنها". هذا، دون أن نغفل مبادرة المنظمة في إصدار مدونة أخلاقيات السياحة، والتي سنتعرض لها لاحقا.

يتضمن المنظور المتكامل للنشاط السياحي ثلاثة أبعاد أساسية كما يبين الشكل التالي:

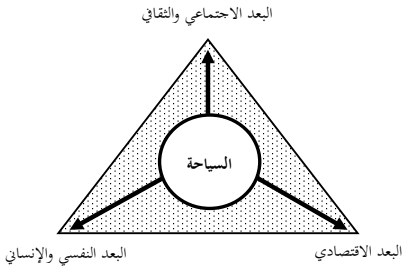

الرسم البياني رقم3: أبعاد النشاط السياحي

إن كل بعد من هذه الأبعاد الثلاثة يشير إلى مجموعة من الحاجات، وبالتالي الأهداف المتضمنة في الأنشطة السياحية. فالبعد الاجتماعي والثقافي يتضمن المحتوى العلاقاتي لهذه الأنشطة (العلاقة ما بين الأفراد والعلاقة مع البيئة)، كما يتضمن ضرورة الحفاظ على الموروث الثقافي والقيمي للمجتمعات وصيانته، أما البعد الاقتصادي فيضمن الاهداف الاقتصادية للسياحة، الكلية منها والجزئية، في حين يشير البعد النفسي والإنساني إلى الحاجات المتعلقة بتنمية الفرد، ومن ضمنها الحاجة إلى الاستجمام والراحة، حب الاطلاع والاكتشاف، العلاج (السياحة العلاجية)، التعلم (السياحة العلمية) وغيرها من الحاجات الإنسانية.

انطلاقا من هذه الأبعاد الثلاثة يمكن فهم السياحة على أنها انتقال الفرد أو المجموعات خارج مكان الإقامة الأصلي، ولمدة لا تزيد عن السنة، لأغراض اقتصادية، اجتماعية وثقافية أو نفسية وإنسانية. ولإدراج البعد الإسلامي في هذا المفهوم يضاف إليه: على أن يكون هذا الانتقال خاضعا للتعاليم الإسلامية في السلوك والغايات والوسائل.

بصفة عامة يمكن القول أن المنظور الغربي لأخلقة الأنشطة السياحية ما يزال مرتبكا، وما يزال نداء "السياحة البديلة" بحاجة إلى تمحيص، ومن ثم تكريس معالم هذه السياحة في الميدان حتى لا تبقى مجرد آمال في عالم الفكر، وأهم أسباب هذا الارتباك ما يلي:

- طغيان رأس المال على كافة مناحي الحياة، ومنها السياحة، حيث العائد المادي هو قاعدة أي تفكير وسلوك.
- سيادة مبدأ الحرية غير المنضبطة في شتى المجالات، وخاصة خرافة الحريات الفردية. وحيث ظلت الحريات الفردية غير مقيدة بضوابط أخلاقية ولا مبالية بالقيم المحلية وبنتائج الفساد.
- عدم استقرار ووضوح مفهوم الأخلاق والقيم في حد ذاته، حتى في المجتمعات الغربية ذاتها، ناهيك إذا ما قارنا بين الفكر الغربي والفكر الإسلامي. فالحرية الفردية مثلا تعد قيمة مقدسة بالنسبة للغرب، ولكنها مقيدة بالقيم بالنسبة للمسلمين.

وحيث أن السياحة هي انتقال للأفراد، فإنها ضمنا تعني انتقالا لثقافات وقيم مختلفة، قد تكون متجانسة ، وقد تكون متنافرة مع الثقافات المحلية. ومع أن الأصل في النشاط السياحي هو الإيجابية والتي من ضمنها تبادل القيم الحضارية المختلفة ما بين الشعوب والاستفادة منها، إلا أن ثمة مخاطر تحف هذه الأنشطة. وبلدان العالم الإسلامي التي تشهد انفتاحا سياحيا متزايدا، ليست بمنأى عن هذه المخاطر، فهي أضحت أكثر فأكثر عرضة لهدم كثير من خصوصياتها الثقافية ومقوماتها الدينية. ومن أجل مواجهة هذا الوضع الممتد في المكان والزمن يتعين إعادة الاعتبار لمدلول السياحة في أرجائها، لاسيما فيما يتعلق بجانب القيم الإسلامية وإرسائها كقاعدة في أي تنظيم سياحي.

ومع ذلك فثمة تياران متنافران في العالم الإسلامي بشأن الأخلقة: تيار يدعو إلى عصرنة الأخلاق، وتيار يدعو إلى أخلقة العصرنة. وبالإسقاط على السياحة يُفهم من عصرنة الأخلاق القبول بتحولات الممارسات السياحية المعاصرة بإيجابياتها وسلبياتها، وهو ما يعني تكييف القيم والسلوكات الخاصة وفق القواعد العالمية للأنشطة السياحية، أي الاستجابة لمتطلبات السياح وتفضيلاتهم ولو كانت غير منسجمة والقواعد المحلية. وعلى سبيل المثال لابد أن تحوي الفنادق حانات وملاهي وغرف خاصة. وبالمقابل فإن أخلقة العصرنة يعني في مفهوم أصحابه ضبط السلوكات والقواعد السياحية وفق قيم المجتمعات المضيفة، لاسيما منها تلك المندرجة ضمن الكبائر في الاصطلاح الفقهي.

إن الأصل في السياحة الإباحة قياسا على القاعدة الفقهية "الأصل في الأشياء الإباحة"، ما دام الغرض والوسيلة والممارسات غير متعارضة وتعاليم الإسلام بل وإن بعض السياحة محث عليها ومأجور عنها، كالتنقل بغرض العلم، أو بغرض العبادة (الحج والعمرة أو غيرهما)، أو بغرض الدعوة إلى الله، أو حتى بغرض اكتشاف خلق الله وتاريخ الأمم السابقة. وفي هذا الصدد وردت آيات في القرآن الكريم تحث على السير في الأرض للنظر فيما آلت إليه حضارات سابقة، كقوله تعالى: (قَدْ خَلَتْ من قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) (آل عمران، ١٣٧)، وقوله تعالى: (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ من قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) (الروم، ٩)، وفي سورة النمل: (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ) (النمل، ٦٩). وفي مجال السياحة العلمية نشير إلى الحديث النبوي: "من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهّل الله له طريقا إلى الجنة" (رواه الترمذي وقال حديث حسن). بل وإن الفرد وهو يضرب في الأرض بغرض العمل وإعالة عائلته فهو مأجور، وفي ذلك ورد قوله صلى الله عليه وسلم "إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل الله، وإن خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج رياء وتفاخراً فهو في سبيل الشيطان" (رواه الطبراني في الأوسط وصححه الألباني في صحيح الجامع).

وفي ذات السياق فإن العمل في القطاع السياحي يعد أيضا من المباحات في الأصل، كالفندقة والمطاعم والمركبات السياحية والإرشاد السياحي وغيرها، ما دامت هذه الأعمال لا تنطوي على الشبهات والممارسات المخالفة للشريعة الإسلامية. بل إن من واجب القائمين على مثل هذه الأعمال والعاملين فيها من المسلمين القيام بواجبهم الشرعي والإنساني في تهذيب سلوك السياح ومكافحة الآفات والمخالفات الشرعية ونشر القيم الإسلامية.

وهكذا فإن النشاط السياحي من المنظور الإسلامي فيه المباح ، والمكروه، والمحرم، والمثاب عليه. فالعبرة في النوايا والمقاصد من السياحة والسير في الأرض، ثم في السلوك المجسد لهذه النوايا. ولقد جاء الإسلام لإتمام مكارم الأخلاق بما فيها الأخلاق السياحية. ولذلك فإن ثمة ضوابط إسلامية لابد من مراعاتها في أي نشاط سياحي:

- التزام الطيبات والابتعاد عن المحرمات: سواء أكانت في المأكل والمشرب والملبس أم في السلوكات والممارسات. قال تعالى: (قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُواْ اللّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (المائدة، ١٠٠).
- التزام السلوك الحسن في المعاملات مع الآخرين وعدم إيذائهم لا بالكلام ولا بالفعل أو بالخداع والغش أو بالكذب أو بغير ذلك من السلوكات المنهي عنها، وهو ما يدل على ضبط العلاقات ما بين البشر. وفضلا عن ذلك ينبغي أن يكون سير المسلم مميزا له، وفي ذلك نشير إلى قوله تعالى: (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاما) (الفرقان، ٦٣). ومما جاء في تفسير قوله تعالى "يمشون" ما جوزه الزجاج أنه عبارة عن تصرفاتهم في معاشرتهم الناس فعُبّر عن ذلك بالانتقال في الأرض وتبعه ابن عطية .
- الحرص على عدم إلحاق الضرر، إن بالنفس أو بالغير أو بالحيوان أو بالطبيعة. وفي الحديث النبوي الشريف الذي رواه ابن ماجة والدارقطني وغيرهما: "لا ضرر ولا ضرار" (حديث حسن).

تعد الضوابط الإسلامية الإطار المحدد لأية حركية سياحية في المجتمع الإسلامي، فهي بمثابة مرتكزات عملية لتحقيق سياحة مسؤولة، كما أنها المرجع لأي نشاط سياحي من تعامل وتسويق وابتكار. وهذه الضوابط تمثل في الحقيقية ميزة تنافسية باعتبارها تجسد تلك المبادئ المتضمنة في السياحة البديلة كاتجاه عالمي.

السياحة المسؤولة : هدف مدونات أخلاقيات السياحة

كثيرا ما يستخدم اصطلاح السياحة المسؤولة في الغرب كمرادف للسياحة المستدامة، ويقصد بهما تطبيق مبادئ التنمية المستدامة في السياحة ، خاصة مع لاقاه مصطلح التنمية المستدامة من صدى منذ ظهوره في بداية الثمانينيات. وفي هذا الإطار ظهرت مدونات السياحة المستدامة، أبرزها مدونة السياحة المستدامة لمنظمة السياحة العالمية في ١٩٩٥ والمدونة الأوربية للسياحة المستدامة في المناطق المحمية في ١٩٩٨. غير أن استخدام "السياحة المسؤولة" اتسع ليشمل الجوانب

الثقافية والأخلاقية، بل وامتد إلى السياحة التضامنية والسياحة العادلة، وإن كان بعضهم يميز ما بينها على مراتب كما يبين الشكل التالي:

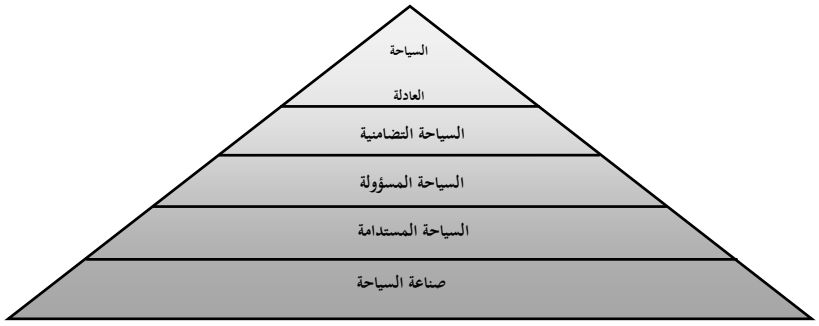

الرسم البياني رقم4: هرم السياحات

Source : D'après B. Schéou, pp168-172

وعموما يقصد بالسياحة المسؤولة : ذلك السلوك السياحي الذي يسوده الاحترام والانضباط نحو المجتمعات المضيفة أو نحو البيئة. وفي هذا الإطار نتكلم عن مسؤولية أخلاقية ومسؤولية مجتمعية ومسؤولية بيئية. ومن وجهة النظر المؤسسية تندرج السياحة المسؤولة ضمن ما يعرف بالمسؤولية الاجتماعية للمؤسسات، والتي أفضت النقاشات بشأنها للتحول تدريجيا من "المسؤولية الاجتماعية للمؤسسات"، التي تهدف إلى تدنية مخاطر السلوكات غير المسؤولة اجتماعيا إلى "استراتيجية المسؤولية الاجتماعية للمؤسسات"، والتي تهدف إلى تعظيم العوائد المنتظرة من سلوكات تعد مسؤولة اجتماعيا . ونعتقد أن أساس أية إستراتيجية في هذا المجال هو المورد البشري باعتبار دوره المركزي في النشاط السياحي.

إن كل الأطراف مسؤولة عن تحقيق "سياحة مسؤولة": أصحاب المصالح (stakeholder)، الزائرين والمزارين. وعموما يمكن اعتبار الأطراف الأربعة التالية مسؤولة عن تحقيق هذه السياحة:

- مؤسسات مسؤولة: وهو أن تسلك المؤسسات السياحية سلوكا مسؤولا تجاه مختلف الأطراف من ناحية، وتجاه البيئة من ناحية ثانية. وفي هذا الإطار نتحدث عن مؤسسات مسؤولة مجتمعيا وبيئيا، كما نتحدث عن استثمار مسؤول وعن معاملات مسؤولة. وبالنسبة للمؤسسة السياحية يتعين على أن تكون مسؤولة في سلوكها تجاه الموارد السياحية المتنوعة، وكذا تجاه المتعاملين وتجاه المجتمع.
- سياح مسؤولون: ويتعلق الأمر بالممارسات المسؤولة من قبل السياح، ويتضمن ذلك التعامل المسؤول مع الآخرين، كالوفاء والصدق، والاستهلاك المسؤول (استهلاك الخدمات السياحية)، والذي من ضمنه حماية البيئة ومختلف الموارد السياحية (معالم أثرية، مواقع سياحية،..).
- سلطات عمومية مسؤولة: وتنصب هذه المسؤولية من جهة على توفير الظروف الملائمة للمتعاملين السياحيين من أجل تحقيق سياحة مسؤولة، ومن جهة ثانية إيجاد الإطار التشريعي والتنظيمي المساعد على تكوين سلوك سياحي منضبط، ونشير هنا إلى: قانون تنظيم الأنشطة السياحية، وميثاق أخلاقيات السياحة.
- مجتمع مدني مسؤول: ويتضمن سكان المناطق المستقبلة، الجمعيات الأهلية، لاسيما منها تلك المعنية بالسياحة والتنمية المستدامة، وكل الهيئات غير الحكومية ذات الصلة.

وفي سبيل الحد من تأثيرات الأنشطة السياحية وتداعياتها السلبية المتعددة الأبعاد على المجتمعات المحلية تم اصدار عدة مدونات لآداب السياحة من طرف بعض الدول وبعض المنظمات غير الحكومية والجمعيات المتخصصة، هذا إضافة إلى المدونة العالمية للمنظمة العالمية للسياحة . غير أننا سنركز هنا على هذه الأخيرة مبرزين بعض الجوانب المرتبطة بأخلاقيات السياحة المتضمنة فيها. مع الإشارة إلى أن جل المدونات التي جاءت بعدها لاسيما منها القطرية، مستوحاة منها.

تم اعتماد المدونة العامة لأخلاقيات السياحة بموجب القرار رقم (A/RES/406 (XIII الصادر عن الجمعية العامة لمنظمة السياحة العالمية التي انعقدت في سانتياغو بالتشيلي خلال الفترة٢٧ أيلول/سبتمبر ١ تشرين الأول/أكتوبر١٩٩٩. وتستهدف المدونة في مجملها إعادة النظر في العديد من الممارسات السياحية، وذلك من خلال الحث على سياحة بديلة أساسها الانضباط واحترام ثقافات وخصوصيات الشعوب من ناحية، ومتطلبات حماية البيئة من ناحية ثانية. وهو ما يندرج عمليا في إطار ترقية السياحة المسؤولة.

لقد جاءت المدونة في عشر مواد، وكل مادة منها تضمنت مجموعة من البنود، وتم ختم المدونة بفصل يتضمن إجراءات التشاور والتوفيق من أجل تسوية المنازعات المتعلقة بتطبيق المدونة. ومن ضمن محتويات هذه المواد نشير إلى ما يلي:

- نصت المادة الأولى وعنوانها إسهام السياحة في التفاهم والاحترام المتبادل بين الشعوب والمجتمعات، على أن التفاهم وتعزيز القيم الأخلاقية المتعارف عليها بين البشر، إضافة إلى التسامح واحترام تنوع العقائد الدينية والفلسفية والأخلاقية، تشكل أساسا للسياحة المسؤولة ونتيجة لها. و لذا ينبغي لكل من أصحاب المصلحة والسائحين مراعاة التقاليد والعادات الاجتماعية والثقافية لكافة الشعوب (بند١)، كما ينبغي القيام بالأنشطة السياحية على نحو ينسجم مع خصائص وتقاليد الأقاليم والدول المضيفة ويحترم قوانينها وأعرافها وعاداتها (بند٢). وعلى السائحين والزائرين التعرف قبل المغادرة على خصائص الدول التي يعتزمون زيارتها (بند٦).
- يعد متعارضا والأهداف الأساسية للسياحة أي استغلال للبشر بأي شكل من الأشكال، خصوصا الاستغلال الجنسي، لاسيما إذا استهدف الأطفال، وينبغي التعاون دوليا من أجل محاربته (المادة الثانية، بند٣).
- ينبغي لجميع أصحاب المصلحة في التنمية السياحية حماية البيئة الطبيعية بقصد تحقيق نمو اقتصادي متواصل ومستدام (المادة الثالثة، بند١). كما ينبغي للمشتغلين بالسياحة، وخاصة المستثمرين، القيام بإجراء دراسات عن أثر مشاريعهم على البيئة ومحيطها الطبيعي (المادة الخامسة، بند٤).
- على المشتغلين بالسياحة توفير معلومات موضوعية وصادقة للسائحين حول الأماكن المقصودة وظروف سفرهم واستقبالهم وإقامتهم، وذلك على أساس عقود مفهومة وواضحة (المادة السادسة، بند١).
- كما إن عليهم بذل ما في وسعهم من أجل إشباع الرغبات الثقافية والروحية لدى السائحين وإتاحة الفرصة لهم لممارسة شعائرهم الدينية أثناء سفرهم (المادة السادسة، بند٣).
- على الشركات متعددة الجنسية ألا تستغل مراكز القوة تحقيقا للتضامن، وعليها أن تتجنب التحول إلى أدوات لنقل النماذج الثقافية والاجتماعية التي تفرض نفسها بصورة مصطنعة على المجتمعات المضيفة (المادة التاسعة، بند٥).
- ينبغي لأصحاب المصلحة في التنمية السياحية، سواء من القطاع العام أو من القطاع الخاص، التعاون على العمل بهذه المبادئ ومراقبة تطبيقها الفعال (المادة العاشرة، بند١).

إن ما انطوت عليه المدونة العالمية للمنظمة العالمية للسياحة من مبادئ بالغ الأهمية، ومن شأنه أن يعزز شروط السياحة المسؤولة. غير أن المشكلة الأساسية تكمن في تطبيق محتواها. فالمدونة في مختلف صياغاتها جاءت في شكل توصيات، فهي غير ملزمة لا للحكومات ولا للمنظمات ولا للأفراد، حتى أنّ بعضهم اعتبرها لا تعدو أن تكون مجرد وصفة عالمية للضمير الجيد، كما أشارت إلى ذلك Bernadette Ducret، التي أكدت على ضرورة توفر الإرادة السياسية من أجل تجسيد مضامينها ، حيث أنه في ظل غياب الأطر التشريعية والتنظيمية المجسدة لتلك التوصيات، وهي مهمة الحكومات، يبقى مضمون المدونة مجرد طموح الضمير الحي وهو طموح تمليه الفطرة البشرية.

ثمة جهود يتعين بذلها من مختلف الأطراف من أجل تطبيق مبادئ المدونة، ولعل بداية ذلك يكون بتكثيف الحملات الدعائية والتحسيسية من أجل تبني تلك المبادي من طرف الاتحادات المهنية للسياحة والمؤسسات السياحية والأفراد، وهو ما سيشكّل بداية واعية يسهل بعدها تصميم الآليات والتدابير العامة للتطبيق. كما إن من مداخل تطبيق مبادئ المدونة أيضا إبرام اتفاقيات ما بين المؤسسات السياحية بالبلدان المضيفة (ومنها البلدان الإسلامية) مع نظيراتها بالبلدان الغربية في إطار سياحة تضامنية ترتكز إلى مبادئ أخلاقيات السياحة.

References

1. Bernard Schéou. Du tourisme durable au tourisme «équitable : Quelle éthique pour le tourisme de demain ?. Editions De Boeck Université. Bruxelles. 2009. p48
2. Marie-Andrée Delisle et Louis Jolin. Un autre tourisme est-il possible ?. Presses de l'Université du Québec. Québec. 2007. p9
3. Arthur Gautier. "Quatre questions à propos de l'économie solidaire". dans un ouvrage collectif intitulé : Pour une autre économie de l'art et de la culture. Éditions érès. Ramonville Saint-Agne. 2008. p14
4. 4S: sea sun sand and sex
5. Demen-Meyer Christine. « Le tourisme: essai de définition ». Management & Avenir. 2005/1 n° 3. p7
6. محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج19، الدار التونسية للنشر، ص68
7. Définition Tourisme durable. in : http://www.ecotourisme-magazine.com/tourisme-durable/
8. يمكن مراجعة هذه المدونة في: http://www.comite21.org/docs/economie/axes-de-travail/tourisme/charte-lanzarote.pdf
9. Responsible Corporate Social Responsibility" to "Strategic Corporate Social Responsibility"
10. Jean-Paul Minvielle. « Les chartes pour un tourisme responsable : Véritable éthique ou simple esthétique de la responsabilité ? ». Éthique et économique/Ethics and Economics. Vol.8 N°1. 2010. p189.
11. Ibid. pp 192-198.
12. Bernadette Ducret. « L'étique dans le tourisme: la nécessité d'un engagement politique des Etats ». Cahiers Espaces. n° 67. pp48-52

أخلقة الأنشطة السياحية:
معالم أساسية لمدونة إسلامية لأخلاقيات السياحة

الحلقة (٣)

د. رحيم حسين
أستاذ باحث في العلوم الاقتصادية
مدير مخبر الدراسات والبحوث في التنمية الريفية" بجامعة برج بوعريريج – الجزائر

المعالم الأساسية للمدونة الإسلامية لأخلاقيات السياحة:

ليس الغرض هنا اقتراح مدونة، ولكن الإشارة إلى أهم المعالم الأساسية الموجّهة عند وضع أية مدونة إسلامية لأخلاقيات السياحة، إذ يمكن أن تتضمن مدونة بلد ما بنودا خاصة نابعة من خصوصياته، سواء أكانت متعلقة بموارد سياحية نادرة أم مصنفة، أم كانت متعلقة بعادات محلية مميزة لمناطق محددة.

ولئن كانت المبادئ المتضمنة في المدونة العالمية لأخلاقيات السياحة عالمية، إلا أنها عامة، فهي موجَّهة لكل المجتمعات باختلاف أطيافها وأديانها، ولذلك لابد من تكييف وتفصيل بعض عناصرها وفقا للخصوصيات الثقافية والدينية للمجتمعات الإسلامية.

تنبثق أهمية وضع مدونة إسلامية لأخلاقيات السياحة من ثلاثة مبررات أساسية:

- ضبط الأنشطة السياحية يعد ضرورة شرعية، وهو يندرج ضمن مقصد حفظ الدين، مما يستدعي وضع إطار واضح لضبط السلوك السياحي لكافة المتعاملين، السائحين وكل أصحاب المصلحة، حيث في ظل غياب الضوابط تفقد السياحة "مشروعيتها".
- في ظل النمو السياحي الذي يشهده العديد من المجتمعات الإسلامية وتوافد الأجانب عليها، أضحى كثير من القيم والعادات المحلية مهدداً بخطر الطمس الثقافي، ومما يعمق من هذا الخطر ظاهرة عولمة الأنشطة السياحية، المستمدة أصلا من عولمة النظام الرأسمالي، وهي في الحقيقة عولمة لفلسفة مضمحلة الأخلاق، وعولمة لثقافات متناقضة، وبالتالي فهي عولمة للفساد، أي لسلوك وممارسات فاسدة.
- تنامي ظاهرة الانحراف السياحي، حيث تولدت عن الصناعة السياحية أنشطة منحرفة (تجارة المخدرات، ما يعرف بصناعة الجنس،..)، وتحولت العلاقات ما بين السياح وبعض المحليين في أماكن عدة من علاقات تبادل ثقافي إلى علاقات غير مشروعة. ونشير هنا، على سبيل المثال، إلى ما لاحظته Corinne Verner في دراستها حول السياحة بالصحراء المغربية من أن العلاقات ما بين السياح والمرشدين لم تكن قائمة على فرضية التبادل الثقافي، وإنما هي ناتجة عن التقاء الرغبات المتناقضة .

يمكن تلخيص معالم المدونة الإسلامية لأخلاقيات السياحة من خلال النقاط التالية:

- التأكيد على أن السياحة هي وسيلة للتعارف بين الشعوب، وللتواصل بين الحضارات والثقافات الإنسانية. المرجع في ذلك قوله تعالى:(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا) (الحجرات، ١٣).
- جعل السياحة وسيلة لنشر القيم الإسلامية، كالتسامح والوفاء والصدق وحسن الضيافة والمعاملة، وهو ما يعني جعلها ظاهرة دعوية، إضافة إلى كونها ظاهرة اقتصادية واجتماعية وثقافية. فلطالما كانت السياحة أداة لنشر الإسلام في العهود الأولى.
- حث السياح على مراعاة قيم المجتمعات الإسلامية وحرمة مقدساتها، حيث إن ذلك سييسر تواصلهم والسكان المحليين، ويعمق علاقاتهم بهم، ويحقق أهدافهم السياحية.
- توطيد مبادئ السياحة المسؤولة، وذلك بتعميق روح المسؤولية لدى السياح في سلوكهم طوال زيارتهم، إن اتجاه البيئة، أو اتجاه مختلف المواقع والمعالم السياحية التي ستتم زيارتها.

- الحرص على تكريس حقوق السياح الأجانب من غير المسلمين في البلاد الإسلامية، وأهمها ضمان الأمان والحماية للغرباء في الدولة الإسلامية، سواء للتجارة أو للسياحة، لهم الحق في الحرية وفي ضمان سلامة أشخاصهم وأموالهم .
- توجيه الهيئات المعنية والمستثمرين والمتعاملين في المجال السياحي عموما إلى ضرورة اعتبار القيم الإسلامية في استثماراتهم وأنشطتهم. ومن أهم التدابير في هذا الشأن "سد الذرائع التي يتوصل بها إلى ما حرم الله تعالى" .
- الترويج لسياحة أساسها القيم، أي "سياحة قيَمية"، باعتبار أن القيم مشترك إنساني متأصل في كل الأديان والفلسفات، والانحراف عنها إنما هو استثناء يحتاج إلى تهذيب.
- تدعيم المدونة بإطار تشريعي وتنظيمي بغرض تطبيق بنودها، سواء فيما يتعلق بالاستثمار السياحي، أو فيما يتعلق بتنظيم الأنشطة السياحية.

إن التركيز على الجانب الأخلاقي أو القيمي لا يعني إغفال الجوانب الأخرى عند إعداد المدونة، كالتكوين والتدريب والتعاون الإقليمي والدولي وغيرها من العوامل المساعدة على تحقيق التنمية السياحية. ومع ذلك ينبغي أن تكون أية مدونة مختصرة ومركزة بحيث يمكن أن تكون بمثابة دليل جيب للسائح، كما لكل المتعاملين السياحيين.

خاتمة:

إن البحث في موضوع أخلاقيات السياحة هو في الحقيقة بحث عن "مشروعية" لهذا النشاط، ليس فحسب بغرض إضفاء طابع القبول العام عليه، ولكن أيضا بغرض ضمان تطوره، كما ونوعا، في إطار تراعى فيه طبيعة هذا النشاط وأهدافه، ومن ثم دعم تنافسيته كقطاع اقتصادي-اجتماعي بالغ الحيوية.

ومن الناحية الإسلامية تمثل أخلقة الأنشطة السياحية ضرورة شرعية، إذ أن الأمر يتعلق أساسا بمقصد حفظ الدين، وذلك بغية تجسيد المبادئ الإسلامية في السلوك السياحي، سواء على مستوى الاستثمار، أو على مستوى ممارسات السياح وكافة الأعوان السياحيين. فالأخلقة بالمنظور الإسلامي تعني تهذيب السلوك بما يوافق أحكام الشريعة الإسلامية.

لقد حاولنا من خلال هذا البحث إلقاء الضوء حول الجوانب المتعلقة بالبعد الأخلاقي في الأنشطة السياحية، معتمدين في ذلك مقاربة مقارنية قصد تجلية النظرة الإسلامية للموضوع، لننتهي في الأخير إلى تقديم المعالم الأساسية لمدونة إسلامية لأخلاقيات السياحة.

يمكن أن نخلص من هذا البحث بالنتائج الآتية:

- إذا كانت السياحة تشكل موردا اقتصاديا هاما في ثروة الأمم، فإن تكاليفها الاجتماعية والثقافية والبيئية قد تكون باهظة على الأجيال الحاضرة والمقبلة، ما لم يتم ضبط السلوك السياحي. ولذلك لابد من تحقيق التوازن بين العوائد الاقتصادية والقيم الثقافية. ولاشك أن التضحية بالأولى أهون من التضحية بالثانية.
- على الرغم مما حظي به موضوع "أخلاقيات السياحة" من اهتمام متزايد، إن على مستوى الهيئات المتخصصة، أو على مستوى البحث الأكاديمي، لكنّ ما تزال النقاشات حوله تتسم بالنمطية، مغفلة تفاصيل الخصوصيات المحلية.
- يشكل تنامي الممارسات السياحية غير المسؤولة عائقا ضخما أمام تطور السياحة العالمية عموما، والسياحة في البلدان الإسلامية على وجه الخصوص.
- غالبا ما تُقرن مسألة أخلاقيات السياحية بالتنمية المستدامة والبيئة، وهي نظرة قاصرة، إذ أن الأخلاقيات تعنى بكافة الممارسات السياحية، ومن كل الأطراف.
- مدونات أخلاقيات السياحة، وعلى رأسها المدونة العالمية، تتسم بالعمومية من ناحية، وبغياب آليات لتطبيق بنودها من ناحية ثانية.

وعلى ضوء هذه النتائج نقدم التوصيات التالية:

- على الباحثين في العلوم الاجتماعية عموما، وخاصة المهتمين منهم بمجال السياحة، المساهمة في إبراز الضوابط الإسلامية للأنشطة السياحية. كما أّن على مراكز البحث ذات الصلة بالموضوع إطلاق مشاريع بحث في هذا المجال. وفي هذا الصدد، وتحقيقا للتواصل مع الغرب، وتبليغا للقيم الإسلامية، من الأهمية بمكان الكتابة بمختلف اللغات.
- يتعين الحرص على إعداد "المدونة الإسلامية العامة لأخلاقيات السياحة"، ولعل الإطار المناسب لذلك هو منظمة التعاون الإسلامي، حتى تلقى القبول العام في مختلف دول العالم الإسلامي. وقد يوكل هذا المشروع إلى اللجنة الإسلامية للشؤون الاقتصادية والثقافية والاجتماعية، وهي إحدى اللجان الرئيسية للمنظمة، في ظل غياب منظمة أو لجنة إسلامية للسياحة، كجهاز متخصص ضمن أجهزة المنظمة، وهو ما يوصى بإنشائه.
- تمثل المدونة الإسلامية العامة لأخلاقيات السياحة إطارا عاما ومرجعا أساسيا للمدونات القطرية، غير أن هذه الأخيرة قد تتضمن بنودا خاصة تتعلق بخصوصيات محلية أو بموارد سياحية مميزة. ولذلك فإن الدول الإسلامية، خاصة السياحية منها، مطالبة أيضا بإعداد مدوناتها الخاصة.
- تفعيلا لمدونات أخلاقيات السياحة يتعين تدعيمها بالنصوص التشريعية والتنظيمية المناسبة، والتي على أساسها تنبثق الآليات والتدابير العملية. ومن ضمن هذه الآليات نذكر اللجنة العليا للضبط والمراقبة (بمثابة مجلس حسبة مختص)، وهي المكلفة بتشكيل اللجان المحلية.
- في إطار ترقية السياحة المسؤولة، المراعية للقيم المحلية، على الهيئات المعنية بالدول الإسلامية (وزارات السياحة) إعداد أدلة مختصرة تقدم للسائحين الأجانب، تتضمن تعريفا بالبلد المضيف وبالقيم الأساسية التي ينبغي احترامها من طرف الزائر.

References

1. العثيمين (محمد بن صالح)، شرح الأصول الثلاثة، دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع، الاسكندرية، 2001.
2. المسعود (فهد محمد علي)، حقوق غير المسلمين في الدولة الإسلامية وحمايتها الجزائية وتطبيقاتها في المملكة العربية السعودية، رسالة ماجستير، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، 1424هـ، 2003م.
3. بن عاشور (محمد الطاهر)، التحرير والتنوير، ج19، الدار التونسية للنشر، 1984.
4. ناقور (هاشم)، أحكام السياحة وآثارها: دراسة شرعية مقارنة، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، الدمام، 1424 هـ.
5. Cauvin Verner C..
6. "Du tourisme culturel au tourisme sexuel : Les logiques du désir denchantement". Cahiers détudes africaines. 2009/1 n° 193-194. p. 123-146.
7. Au désert : une anthropologie du tourisme dans le sud marocain. L'Harmattan. Paris. 2007.
8. Delisle M-A. et Jolin L.. Un autre tourisme est-il possible ?. Presses de l'Université du Québec. Québec. 2007.
9. Demen-Meyer C.. « Le tourisme: essai de définition ». Management & Avenir. 2005/1 n° 3. p. 7-25.
10. Ducret B.. « L'étique dans le tourisme: la nécessité d'un engagement politique des Etats ». Cahiers Espaces. n° 67. pp48-52
11. Gagnon C. et Gagnon S. (Sous la direction de). L'écotourisme: entre l'arbre et l'écorce. (Québec: Presses de l'Université du Québec. 2006.
12. Gautier A.. Quatre questions à propos de l'économie solidaire. dans un ouvage collectif intituléé : Pour une autre économie de l'art et de la culture. Éditions érès. Ramonville Saint-Agne. 2008.
13. Lemennicier B.. La morale face à l'économie. Editions d'Organisation. Paris. 2006.
14. Minvielle J-P.. Les chartes pour un tourisme responsable : Véritable éthique ou simple esthétique de la responsabilité ?. Éthique et économique/Ethics and Economics. Vol.8 N°1. 2010. pp 186-202.
15. Nadège C.. « Vers une éthique du tourisme ? » Les tensions à lœuvre dans lélaboration et lappréhension des chartes de bonne conduite par les différents acteurs. Autrepart. 2006/4 n° 40. pp 45-62
16. Schéou B.. Du tourisme durable au tourisme ،équitable : Quelle éthique pour le tourisme de demain ?. Editions De Boeck Université. Bruxelles. 2009.
17. SESRIC (Centre de Recherches Statistiques. Economiques et Sociales et de Formation pour les Pays Islamiques). Rapport économique annuel dans les pays membres de l'OCI 2009
18. Samuel B. et al.. « Évaluation de lavantage macroéconomique net du tourisme Analyse coûts-bénéfices des recettes touristiques internationales » .Revue dÉconomie Régionale & Urbaine. 2007/1 mai.
19. OMT (Organisation Mondiale du Tourisme). Code Mondiale d'Ethique du Tourisme : http://www.comite21.org/docs/economie/axes-de-travail/tourisme/charte-lanzarote.pdf
20. OMT. communiqué de presse de l'OMT : "Les recettes du tourisme international dépassent les mille milliards de dollars en 2011". PR No.: PR 12027. Madrid. 07 May 2012
21. OMT : Concepts. définitions et classification des statistiques. manuel technique n°1. Madrid. OMT. 1995
22. CDB (Convention sur la diversité biologique). Un guide des bonnes pratiques : Le tourisme pour la nature & le développement. Montréal. 2010. p1 ; in: www.cbd.int/.../cdb-guide-des-bonnes-practiques-tourisme-web-fr.pd... . consulté le 26/04/2011